مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 29، أكتوبر 2021، ص - ص: 627 – 638
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

البيان النبوي والأمثال العربية
من خلال كتاب "جمهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري

Historical vision on the dimensional stretching of the Dalaï Zaouia and its manifestations in Tlemcen Ottoman during the $11^{H}/17^{G}$ and $12^{H}/18^{G}$ centuries

د/ كمال بن عمر
كلية الآداب واللغات – جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي
bayane114@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/08/28 تاريخ القبول: 2021/07/29

الملخص:

يقوم هذا المقال على تتبع مدى حضور البيان النبوي في أحد فنون القول التي تندرج في إطار علم الأدب. ويتعلق الأمر – تحديدا- بفن المثل. ووقع الاختيار على كتاب "جمهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري الذي ضمّنه عددا معتبرا من الأحاديث النبوية لاسيما القصيرة منها لاشتراكها مع الأمثال في أبرز خصائصها المتمثلة في الإيجاز.

ويشتمل المقال على بيان مفهوم البيان النبوي، وأهمّ سماته المميّزة له، وهي سمة "جوامع الكلم". كما يحتوي على إضاءات لمفهوم المثل، وأبرز خصائصه من أجل معرفة أوجه الشبه بين البيان النبوي والمثل العربي، لنصل في النهاية إلى تحديد الطرق التي سلكها العالم اللغوي والأديب الناقد أبو هلال العسكري في التعامل العلمي مع هذا البيان من خلال منظومة الأمثال العربية.

الكلمات المفتاحية: البيان النبوي؛ المثل؛ أبو هلال العسكري؛ جمهرة الأمثال.

Abstract:

This article tracks the presence of the Prophet's diction in a genre in the art of phraseology that is embodied in the science of literature. It is about Paremiology. We chose Abu Hilal Al Askary's book "Jamharat-al-Amthal" (The Collection of Proverbs), which gathered a considerable number of the Prophet's Muhammad -PBUH- Hadiths, especially the short ones due to their resemblance to proverbs in many respects mainly concision.

The article contains a definition of "The Prophet's Diction»concept and its most important characteristic: Aphorism. It also contains enlightenments on the notion of a proverb and its main features in order to perceive the similarities between the Prophet Mohammad's Diction and the Arabian proverb; and to define, finally, the methods used by the linguist and literary critic Abu Hilal al-Askari in his scientific study of this Mohammedan Diction through the array of Arabian proverbs.

key words: Prophet's diction; Proverb; Abu Hilal Al Askary; Jamharat - al- Amthal; The Collection of Proverbs.

مقدّمة:

للبيان النبوي حضور متميز وتأثير بالغ في شتى علوم اللغة والأدب على اختلاف أصولها ومناهجها وموضوعاتها. ويختلف هذا الحضور - كما وكيفا- بحسب مقتضيات كل علم من حيث التـأصيل والاستدلال والاستشهاد من ناحية، وتبعا للرؤية الخاصة لكل عالم ومقدار ما أوتي من هذا البيان من ناحية ثانية.

وفي هذا المقال سنتعرّف على صورة من صور هذا الحضور والتأثير من خلال أحد الأشكال الأدبية الوجيزة وهو فن المثل. ولقد وقع الاختيار على كتاب «جمهرة الأمثال «لأبي هلال العسكري الذي عرف بسعة اطّلاعه، وعلوّ كعبه في علوم اللغة والأدب والنقد والبلاغة كما تشهد بذلك مصنّفاته المعروفة.

ولعلّ من مقتضيات السير المنهجي في هذا الموضوع أن نبدأه بعرض جملة من التحديدات النظرية المتعلّقة بمفهوم البيان النبوي، وأبرز خصائصه، إلى جانب مفهوم المثل، وأبرز سماته، ليتسنّى لنا بعد ذلك أن نحدّد أهمّ أوجه الشبه بين البيان النبوي والمثل العربي. ثم ندخل بعدئذ في صلب الإشكالية الجوهرية التي يقوم عليها هذا البحث وهي معرفة أهم الطرق والمداخل اللغوية والبلاغية والنقدية التي اعتمدها أبو هلال العسكري في تعامله مع البيان النبوي الحاضر في منظومة الأمثال العربية من خلال كتابه الشهير: "جمهرة الأمثال".

أولا- البيان النبوي وجوامع الكلم:

1- البيان لغة: البيان مصدر من الفعل "بان"، و"بان الشيء" أي: تبيّن وظهر واتّضح، أو هو اسم من الفعل "بيّن" كالسلام والكلام من سلّم وكلّم، ثمّ أصبح يدلّ على ما يتبيّن به من الدلالة وغيرها.

2- البيان اصطلاحا: وفي الاصطلاح، يطلق البيان على الفصاحة، وعلى الملكة أو الأصول التي يعرف بها إيراد المعنى الواحد في صور مختلفة...وقد يطلق على نفس التبليغ[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: 04). وموضوع البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية[2].

وضد البيان الغموض واللبس والإلغاز والإبهام وما إلى ذلك مما يدلّ على خفاء الدلالة أو التباسها. ذلك أنه قد يأتي التعقيد في الكلام الدال، ولا يستحق اسم البيان[3].

وقد مرّ مصطلح "البيان" بثلاث مراحل يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- فقد دلّ في البداية على معناه اللغوي المعروف وهو الكشف والإيضاح والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي.
- ثم استخدم مرادفا لمصطلح البلاغة في إحدى دلالاتها التي تعني العبارة الفنية أو التعبير الجميل.
- ثم أطلق أخيرا على أحد أقسام البلاغة الثلاث المتعلق بالصور المجازية[4].

هذا ما يتصل بالبيان في مدلوله العام من حيث اللغة والاصطلاح. أمّا البيان النبوي، فهو جزء من السنة النبوية في جانبها القولي، لأنّ السنة - كما هو معلوم - قول وفعل وتقرير. والقول هو المجال الطبيعي للبيان بما هو كشف وإيضاح ودلالة ظاهرة على المعنى الخفي كما هو فصاحة وبلاغة وتعبير جميل.

ويحتلّ البيان النبوي منزلة متميزة في فنّ القول؛ فقد اجتمعت للرسول (عليه الصلاة والسلام) كل أسباب الفصاحة والبلاغة، فقد نشأ وترعرع وتقلب في أفصح القبائل العربية وأعذبها بيانا ولاسيما في قريش قبيلته الكبرى، ولدى بني سعد بن بكر حيث كان رضاعه. "ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة، ولذا قال ﷺ: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر». وهو قول

أرسله في العرب جميعا، والفصاحة أكبر أمرهم والكلام سيّد عملهم، فما دخلتهم له حمية...، ولا ردوه...، ولا وجدوا إلى نقضه سبيلا"[5].

ويروى أنّ أبا بكر رضي الله عنه قال له مرة: لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدّبك؟ قال: "أدّبني ربّي فأحسن تأديبي"[6]. ذلك أنّ الله (عزّ وجلّ) قد علّمه بنفسه، وصنعه على عينه بأن أنزل عليه الكتاب والحكمة مصداقا لقوله جلّ في علاه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: 113).

وقد أشاد العلماء والأدباء من القدماء والمحدثين ببلاغة البيان النبوي التي لا تدانيها أيّ بلاغة بشرية مهما سطع نجمها وذاع صيتها. يقول الجاحظ في هذا السياق واصفا البيان النبوي: "وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف... فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلّم إلاّ بكلام حفّ بالعصمة... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ"[7].

وقال الزمخشري عن بيانه ﷺ: "ثم إنّ هذا البيان العربي كأنّ الله عزّت قدرته مخضه، وألقى زبدته على لسان محمد صلّى الله عليه وعلى آله أفضل صلاة وأوفر سلام، فما من خطيب يقاومه إلاّ نكص متفكك الرحل، وما من مصقع يناهزه إلاّ رجع فارغ السجل، وما قرن بمنطقه منطق إلا كان كالبرذون مع الحصان المطهّم، ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوضح في نقبة الأدهم"[8].

ومن المحدثين نكتفي بكلام مصطفى صادق الرافعي الذي بسط القول ووسّعه في وصف البلاغة النبوية وتحليلها حيث يقول: "... ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلمه...، وخلص أسلوبه، فلم يقصّر في شيء، ولم يبالغ في شيء، واتّسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة والبلاغة ما لو أراده مريد لعجز عنه، ولو هو استطاع بعضه لما تمّ له في كل كلامه، لأن مجرى الأسلوب على الطبع، والطبع غالب مهما تشدد المرء وارتاض ومهما تثبت وبالغ في التحفظ.

هذا إلى أن اجتماع الكلام وقلة ألفاظه، مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف، ومع إبانة المعنى واستغراق أجزائه، وأن يكون ذلك عادة وخلقا يجري عليه الكلام في معنى معنى وفي باب باب شيء لم يعرف في هذه اللغة لغيره ﷺ"[9].

ولعلّ في هذه الاقتباسات ما يكفي ويغني في بيان أبرز السمات المميّزة للبيان النبوي على وفق المعايير التي اعتمدها أقطاب البلاغة العربية في مختلف عصورها من أمثال الجاحظ (ت255ه)، والزمخشري (ت538ه)، والرافعي (ت1356ه). تلك الأسماء اللّامعة التي خبرت فنّ القول عند العرب بشعره ونثره، على صعيد الإنشاء والإبداع، والنقد والدراسة على حدّ سواء. كما كانت لها وقفات متميّزة مع النموذج الأعلى للبلاغة العربية ممثّلا في الخطاب القرآني.

3- جوامع الكلم: روي عن النبي ﷺ أنّه قال: "بعثت بجوامع الكلم... إلخ"[10]. وقد وردت روايات كثيرة في هذا المعنى ونحوه مما يزيد في صحته وثبوته؛ منها ما أورده العسكري بسنده في جمهرة الأمثال: "أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا"، وفي خبر أحمد: "أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه" وفي غير ذلك من الروايات[11].

ومما جاء في شرح حديث "جوامع الكلم" أنّ الله يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك[12].

والمراد بجوامع الكلم اجتماع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة مع حكمة وسمو وبلاغة[13]. وتعدّ هذه الصفة من أبرز خصائص البيان النبوي التي أشاد بها كل من كتب في هذا الموضوع قديما وحديثا من العلماء والأدباء[14].

هذا وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ المقصود بجوامع الكلم هو القرآن بقرينة قوله: "بعثت "، والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعنى، وقال آخرون: هو القرآن وغيره مما أوتيه في منطقه بتبين من غيره بالإيجاز والإبلاغ والسداد بدليل: "كان يعلّمنا جوامع الكلم وفواتحه"[15].

ولا ريب أنّ أسلوب القرآن بلغ الغاية القصوى من هذه الصفة أي: جوامع الكلم، بيد أنّ أسلوب الحديث - أيضا- قد أخذ منها النصيب الأوفر باعتبار النبوة المتشربة لروح القرآن وأسراره أكثر من غيرها. وهذا مما لا يختلف بشأنه اثنان. فلا غرو – إذن- أن يكون من آتاه الله الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم، وأدبه فأحسن تأديبه أكثر الناس تأثرا بأسلوب القرآن في كلامه وبيانه ﷺ.

فصفة "جوامع الكلم" بما تعنيه من استيفاء واستيعاب وإحكام إلى جانب الإيجاز والاختصار وحسن البيان، تعدّ من لوازم البلاغة النبوية، ومن أبرز تجليات البيان النبوي. "ومن ينعم النظر في كلامه ﷺ، يجد جلّ كلماته جارية هذا المجرى أي مجرى الجمع والإيجاز والاختصار، فالجمع صفة راسخة في أحاديثه ﷺ كلها طالت أم قصرت"[16].

ومن جوامع كلمه (عليه الصلاة والسلام) قوله: "إنما الأعمال بالنيات"، وقوله: "الدين النصيحة "، وقوله: "الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات"، وقوله في معنى الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن يراه فإنه يراك"، وقوله: "المرء مع من أحب"، وقوله: "الصبر عند الصدمة الأولى"... إلخ[17].

وقد يتّسع مدلول "جوامع الكلم" ليعني اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون في مجلدات... ومن أمثلته في علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله: "كما تكونوا يولّ عليكم"، فأي قاعدة من القواعد الأصلية في سياسة الأمم، لا تنطوي بين هذه الكلمات؟ ينطوي فيها أنّ الأمم مسؤولة عن حكوماتها... وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة... وينطوي فيها أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل، فلا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم... وينطوي فيها أن الأمة مصدر السلطات. وينطوي فيها أنّ الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه... وذلك هو الإبلاغ الذي ينفذ في وجهاتها كل نفاذ"[18].

ومجمل القول أنّ «جوامع الكلم «التي تعدّ خاصية أساسية في البيان النبوي تعني - بالمختصر المفيد- استيعاب المعاني الغزيرة في مباني قصيرة على درجة عالية من الفصاحة والبلاغة. وقد تتسع تلك المعاني لتشمل أصول الفنون ومبادئ العلوم من خلال الإشارة إليها بكلمات معدودات.

ثانيا- الأمثال العربية:

سنقدّم فيما يأتي لمحة مختصرة عن مفهوم المثل وأبرز خصائصه من أجل تحديد أهمّ أوجه الشبه بين المثل العربي والبيان النبوي.

1- تعريف المثل: تدل مادة (مثل) في اللغة على معنى الشبه والنظير. وكل الأبنية المشتقة من هذا الأصل تدور في فلك هذا المعنى[19].

هذا من ناحية اللغة، أما اصطلاحا، فقد حدد مفهوم المثل بتعريفات متعددة ومتنوعة من قبل العلماء والباحثين من القدامى والمحدثين. وفي هذا الصدد سنكتفي بإيراد تعريفين اثنين فقط لضيق المقام. يقول

الميداني (ت 518) نقلا عن المبرد: "المثل مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يشبّه به حال الثاني بالأول"[20]. والمراد بالأول في كلامه مورد المثل أي الحادثة الأولى التي ظهر بسببها المثل لأول مرة. أما الثاني، فالمراد به مضرب المثل الذي يعني الموقف الثاني الذي يضرب به المثل لمشابهته للحادثة الأولى.

ويعرف أحمد أمين المثل بأنه "نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية، ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم. ومزية الأمثال أنّها تنبع من كل طبقات الشعب"[21].

وتجدر الإشارة - هاهنا- إلى أن خصائص المثل التي ذكرت في تعريف أحمد أمين سبق أن أوردها العلماء القدامى ممن تناولوا بلاغة المثل كالعسكري والميداني والزمخشري وابن الأثير وغيرهم.

2- أوجه الشبه بين البيان النبوي والمثل العربي: بعد التعرف على أبرز خصائص البيان النبوي من ناحية، والمثل العربي من ناحية ثانية، يمكننا أن نتبيّن أهم أوجه الشبه بينهما.

لا ريب أنّ ما سبق ذكره من خصائص المثل نجده في الكثير من الأحاديث النبوية التي تتميز بإيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية على أحسن صورة وأكملها. بيد أن أخص خصائص المثل، وأبرز صفاته التي تميزه عن سائر فنون الأدب هي صفة الإيجاز التي لا يخلو منها أي تعريف للمثل لأنها من لوازمه الثابتة.

وقد مر بنا في معرض حديثنا عن البيان النبوي أنّ الإيجاز يعدّ من أبرز خصائص "جوامع الكلم" التي أوتيها الرسول ﷺ ولاسيما في الأحاديث القصيرة ذات الكلمات المحدودة.

وبناء على ما تقدم، يمكن اعتبار صفة الإيجاز من أهم أوجه الشبه بين البيان النبوي والمثل العربي.

ومن هذا الباب باب الإيجاز ندخل في صلب موضوع هذا المقال الذي يسلط بعض الضوء على عالم الأمثال العربية التي تشتمل على كم معتبر من الأحاديث النبوية الموجزة التي جرت مجرى الأمثال وشاعت بين الناس على هذا الأساس وهي في أصلها وحقيقتها من جوامع الكلم في البيان النبوي كما بيّن ذلك أبو هلال العسكري في كتابه المشهور: "جمهرة الأمثال".

وقد تناول العسكري في مقدمة كتابه خاصية الإيجاز بوصفها الركيزة الأساسية في بنية المثل معتمدا على رصيده الوافر في علوم الأدب والنقد والبلاغة إذ يقول: "ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جلّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ، ليخف استعمالها، ويسهل تداولها، فهي من أجلّ الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله، لقلة ألفاظها وكثرة معانيها، ويسير مؤنتها على المتكلم، مع كبير غايتها، وجسيم عائدتها. ومن عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب، والحفظ موكّل بما راع من اللفظ، وندر من المعنى"[22].

ثالثا- كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري[23]:

يعدّ هذا الكتاب من أشهر كتب الأمثال. وقد أشاد أبو هلال في مقدمته القيّمة بمنزلة الأمثال من الكلام وما تتميز به من روعة الإيجاز، وإصابة المعاني، وجمال البيان، وسهولة الحفظ، وسعة الانتشار والتداول. وقد اقتبسنا آنفا فقرة منها تندرج في هذا السياق.

وقد أورد أبو هلال أمثال الكتاب في تسعة وعشرين بابا على ترتيب حروف المعجم الثمانية والعشرين، وأضاف إليها بابا في الأمثال المبدوءة بالحرف (لا) وهو الباب الثامن والعشرون. ويفتتح كلّ باب بسرد الأمثال التي يحتويها على شكل فهرس، ثم يذكر الأمثال التي على صيغة (أفعل من) من هذا الباب مفهرسة كذلك تحت عنوان: "الأمثال المضروبة في المبالغة والتناهي"، ثم يبدأ في تفسير كلّ مثل

يحتاج إلى تفسير. واشتمل الكتاب على نحو ثلاثة آلاف مثل فسّر منها المصنّف ما يقرب من ألفي مثل وأغفل الباقي لوضوح معناه.

وتبدو عناية أبي هلال فائقة ببيان أصول الأمثال ومضاربها، وأوائل من قالها. كما اهتمّ بالناحيتين اللغوية والنحوية.

وكان المؤلف يستثمر في بعض المواضع ثقافته الواسعة في علوم الأدب والنقد والبلاغة في التعليق على الأمثال والأشعار بآراء نقدية حول جمال اللفظ أو قبحه، وجودة المعنى أو رداءته وما إلى ذلك مما يعنى به نقاد الأدب. وهذا ما امتاز به كتاب الجمهرة عن سائر كتب الأمثال.

ولقد أكثر أبو هلال من الاستشهاد بالشعر والقرآن الكريم والحديث الشريف وآثار السلف.

واعتمد المؤلف في تفسير الأمثال وشرح غريبها على آراء العديد من علماء اللغة والأخبار من أمثال أبي عمرو بن العلا، والمفضل الضبي، وأبي عبيدة، والأصمعي، وابن الأعرابي، وابن السكّيت، وابن قتيبة، والمبرد، وثعلب، والكسائي، وغيرهم، كما أكثر من الرواية عن خاله أبي أحمد العسكري[24].

1- **البيان النبوي في كتاب "جمهرة الأمثال"**: قد أشرنا فيما سبق إلى أنّ أبا هلال العسكري ضمّن كتابه "جمهرة الأمثال" عددا معتبرا من الأحاديث النبوية القصيرة التي تشبه الأمثال في إيجازها وإحكامها وروعة بيانها حتى شاعت بين كثير من الناس على أنّها أمثال سائرة وهي في أصل مصدرها نابعة من مشكاة البيان النبوي القائم في جوهره على "جوامع الكلم" التي أوضحنا مدلولها فيما سلف.

ولقد أورد أبو هلال البيان النبوي في أكثر من خمسين (50) موضعا من كتابه. وتناوله بطرق متعددة ومتنوعة؛ فأحيانا يكتفي بإثبات أنّ أوّل من قال هذا المثل هو الرسول (عليه الصلاة والسلام)، ويحرص على ذكر سلسلة السند كاملة منه إلى الرسول ﷺ، وكثيرا ما كان يعتمد على خاله أبي أحمد العسكري في الرواية - كما أشرنا آنفا- قائلا: "أخبرنا أبو أحمد"، وفي بعض المواضع يقوم بشرح لغوي لبعض ألفاظ الحديث أو تراكيبه، وفي مواضع أخرى يبدي بعض الآراء النقدية أو الرؤى البلاغية... إلى غير ذلك من الطرق التي سنتعرّف عليها فيما يأتي من خلال إيراد النماذج التطبيقية .

أ- "إنّ من البيان لسحرا...": هذا أوّل مثل بدأ به أبو هلال كتابه. وقد أكّد منذ البداية أنّ أوّل من لفظ بهذا القول هو النبي ﷺ معتمدا على ما بحوزته من روايات لهذا الحديث وتفسيره أوردها بسندها الكامل المتصل[25].

وقصة الحديث بحسب الرواية الأولى أنّ الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال لعمرو بن الأهتم: أخبرنا عن الزبرقان، فقال: "إنه مطاع في أدنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر من ذلك، ولكن حسدني، فقال عمرو: والله يا رسول الله، إنه لزمر المروءة، ضيق العطن، حديث الغنى، أحمق الوالد، لئيم الخال، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى؛ رضيت فقلت بأحسن ما علمت، وسخطت فقلت بأسوء ما علمت. فقال النبي ﷺ: "إنّ من البيان لسحرا".

وأورد أبو هلال بعد ذلك رواية عن خاله أبي أحمد في تأويل هذا الحديث إذ ذكره أبو عبد الرحمان مرة فسأل عنه من حوله: أذمّ البيان أم مدحه؟ فما أبان أحد بشيء. فقال: ذمه، لأن السحر تمويه، فقال: إنّ من البيان ما يموّه الباطل حتى يشبّهه بالحق. وقال غيره: بل مدحه لأن البيان من الفهم والذكاء. ثم يبدي أبو هلال رأيه في هذا السياق مرجّحا المدح حيث قال: "الصحيح أنّه مدحه، وتسميته إياه سحرا إنما هو على جهة التعجب منه؛ لأنه لما ذم عمرو الزبرقان ومدحه في حال واحدة، وصدق في مدحه وذمه فيما ذكر، عجب النبي ﷺ من ذلك كما يعجب من السحر، فسماه سحرا من هذا الوجه"[26]. ومع ترجيحه المدح في تأويل

البيان النبوي على النحو الذي تقدم، إلا أنه لا ينفي عن البيان قدرته العجيبة على التمويه بما يمتلكه من طاقة رهيبة في التصوير والتأثير تظهر الحق باطلا والباطل حقا. وهذا ما قرره أبو هلال تقرير الأديب المتمرس والناقد الخبير بصناعة الكلام ومراتب البلاغة حيث يقول: "وقد أجمع أهل البلاغة على أنّ تصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق من أرفع درجات البلاغة، وقد أحكمنا ذلك في كتاب صناعة الكلام"[27].

وقد أورد العسكري رواية أخرى لهذا الحديث فيها زيادات توخى من أجلها تكريره، وفيها يقول الرسول ﷺ: "إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما، وإن من العلم لجهلا، وإن من القول عيالا". ثم يشرح هذه الزيادات فيقول: "إن من العلم جهلا" يعني تكلف العالم القول فيما يجهله. وقوله: "إن من القول عيالا" يعني عرضك الكلام على من ليس من شأنه. والحكم: الحكمة، كقولك: العُذر والعِذرة.

ويعود أبو هلال بعد ذلك إلى العبارة الأولى: "إن من البيان لسحرا" فينقل تأويلا آخر لها مؤدّاه أنّ البليغ يبلغ ببيانه ما يبلغ الساحر بلطافة حيلته في سحره[28].

بعد هذه البيانات التي عرضها أبو هلال من الرواية والتفسير والتأويل، ينتقل إلى ناحية أخرى تتعلق بتأثير هذا البيان النبوي المتمثل في عبارة "إن من البيان لسحرا" على كلام البلغاء والشعراء؛ فقد ذكر أنّ بعضهم تكلم عند عمر بن عبد العزيز بكلام حسن، فقال عمر: هذا السحر الحلال؛ فتصرّف الشعراء في هذه اللفظة فقال بعضهم:

وحديثها السحر الحلال لو انّه *** لم يجن قتل المسلم المتحرّز
إن طال لم يُملل وإن هي أوجزت *** ودّ المحدَّث أنها لم توجِز
شرك القلوب وفتنة ما مثلها *** للمستهام وعُقلة المستوفز

وقال بعض المهالبة في المعتمد:

سيبقى فيك ما يهدي لساني *** إذا فنيت هدايا المهرجان
قصائد تملأ الآفاق ممـــــا *** أحلّ الله من سحر البيان
بها ينفي الكرى السارون عنهم*** وتُلهي الشَّربَ أوتار القيان
بمعتمد على الله استجرنـــــا *** فصرنا آمنين من الزمان[29]

ومجمل القول بخصوص الأنموذج الأول الذي تقدّم أنّ أبا هلال يحرص في بادئ الأمر على إثبات أنّ أوّل من تلفظ بهذا القول هو الرسول (عليه الصلاة والسلام) إن صحّت عنده الرواية بذلك. ثم يورد ما تناهى إليه من أقوال وروايات تتعلق بتفسير هذا البيان النبوي وتأويله مبديا بعدئذ رأيه الخاص مشفوعا بالتعليل الكافي. وقد يضيف إلى ما ذكرنا شواهد شعرية أو نثرية تأثر أصحابها بهذا البيان النبوي كما بيّنا ذلك آنفا.

ب- "إنّ ممّا ينبت الربيع لما يقتل حبَطا أويُلِمُّ": بدأ أبو هلال كلامه بتقرير المصدر النبوي لهذا القول فقال بأن أول من تكلم به هو النبي ﷺ[30]. وكعادته أورد رواية الحديث بسندها الكامل بدءا بقوله: "أخبرنا أبو أحمد..." إلى قول النبي ﷺ: "إن مما أخاف عليكم ما يُفتح لكم من زهرة الدنيا وزينتها"، فقال: يا نبي الله، أَو يأتي الخير بالشرّ؟ فأورينا أنه ينيزَل عليه، فقال: "أين السائل؟ فكأنّه حمده فقال: إنه لا يأتي الخير بالشرّ، وإنّ مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم".

وقد علّق أبو هلال على هذا البيان النبوي بقوله: "وهذا من أحسن الكلام وأوجزه، وأفصحه لفظا، وألطفه معنى"[31]. وهذا التعليق هو حكم نقدي استند فيه العسكري إلى ثقافته النقدية الواسعة.

وبعد إصدار هذا الحكم النقدي الذي أشاد فيه ببلاغة البيان النبوي في هذا المثل، ينتقل أبو هلال إلى تفسيره وتأويله مع شرح لغوي لكلمة (الحبط)، فيقول: "وهو مثل ضربه لمن أعطي من الدنيا حظا، فألهاه الاشتغال به والاستكثار منه، والحرص عليه، ومجانبة القصد فيه؛ عن إصلاح دينه، فيكون فيه هلاكه، كما أن الماشية إذا لم تقتصد في مراعيها حبطت بطونها فماتت أو كادت. والحبَط: انتفاخ البطن"[32].

ج- "التقى الثريان": يبدأ أبو هلال بشرح هذا المثل فيبيّن أنه يضرب لاتفاق الأخوين في التحاب. والثرى: الندى، وذلك أنّ المطر إذا كثر ورسخ في الأرض، حتى يلتقي نداه وندى بطن الأرض، فشبّه سرعة اتفاق المتفقين على المودة بعد تباينهما بالماء ينزل من السماء فيلتقي مع ما تحت الأرض[33].

هذا بيان لمضرب المثل وتفسيره؛ أما حضور البيان النبوي فيه، فيتمثل في إيراد حديث شريف قريب في معناه من معنى هذا المثل، وهو قول النبي ﷺ: "الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف".

ثم يبيّن تأثير هذا البيان النبوي في الشعر العربي، فيذكر شاهدا عن ذلك من شعر أبي نواس الذي أخذ معنى الحديث كاملا كما أخذ جلّ ألفاظه وتراكيبه حين قال:

إنّ القلوب لأجناد مجنّدة *** لله في الأرض بالأهواء تأتلف

فما تعارف منها فهو معترف *** وما تناكر منها فهو مختلف[34].

د- "الجواد يعثر": يضرب مثلا للرجل الصالح يسقط السقطة، ويقولون: "لكل حسام نبوة، ولكل جواد كبوة، ولكل حليم هفوة، ولكل كريم صبوة"[35] . وقد تمثل حضور البيان النبوي في هذا المثل من خلال إيراد المؤلف لحديث نبوي يحمل معنى هذا المثل، وقد ساقه - كعادته- بسنده الكامل مفتتحا إياه بالعبارة الشهيرة لديه عند الرواية وهي: "أخبرنا أبو أحمد ...". ونص الحديث هو: "لا حليم إلا ذو أناة، ولا عليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة". واكتفى أبو هلال بإثبات النص من دون إضافة شرح أو تفسير لوضوح معناه[36].

هـ- "تجشّأ لقمان من غير شبع": وهو مثل للرجل يظهر الغنى وهو فقير، والجلد وهو ضعيف . وأصله في الرجل يتجشأ على جوع. وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ حيث قال: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور". وذكر أبو هلال رواية للأصمعي وأبي عبيدة استشهد فيها بهذا الحديث مما يزيد معناه وضوحا. وفيما يأتي نص الرواية: "وأخبرنا الصولي عن أبي العيناء قال: قال الأصمعي يوما بحضرة أبي عبيدة: كان أبي يساير مسلم بن قتيبة يوما على دابة، فقال أبو عبيدة: سبحان الله، والحمد لله... قال النبي ﷺ: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور"، والله ما ملك أبوك دابة قط إلا في الزهادة". ويختم أبو هلال كلامه بتفسير عبارة "ثوبا زور" الواردة في الحديث، فيقول بشأنها: يعني ثياب أهل الزهادة، يلبسها من ليس من أهلها[37].

و- "الدال على الخير كفاعله": قال أبو هلال عن هذا المثل: "المثل للنبي ﷺ، فيما قاله أبو أحمد، والصحيح أنه لأكثم بن صيفي، وتمثل النبي ﷺ به، وسيجيء فيما بعد"[38]. وهنا تبرز الأمانة العلمية لدى أبي هلال كما يبرز حرصه على الضبط والتمحيص عند نقل الروايات. ذلك أنه على الرغم من أن جلّ رواياته أخذها عن خاله وأستاذه أبي أحمد، إلا أن ذلك لم يمنعه من تصحيح ما يراه قد أخطأ فيه. وهذه من أهم صفات العالم النزيه المتجرد، ومن بركة العلم أن يعزى إلى أهله كما يقول علماؤنا القدامى.

ز- "زر غبّا تزدد حبّا": المثل للنبي ﷺ، أخبرنا أبو أحمد قال : حدثنا الحسين بن محمد المخرّمي قال: حدثنا سويدا ابن سعيد قال: حدثنا المعتمر بن طلحة، عن عمرو بن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "زر غبّا تزدد حبّا"[39].

بعد إثبات الرواية على النحو الذي تقدم، يأتي أبو هلال ببعض الأبيات الشعرية التي تأثر أصحابها بهذا البيان النبوي الجميل الذي سار سير المثل لروعة إيجازه وإيقاعه إلى جانب صواب معناه.

وقال بعض الشعراء في هذا السياق:

وقد قال النبي وكان برّا *** إذا زرت الحبيب فزره غبّا

وأنشد أبو أحمد عن ابن دريد:

عليك بإغباب الزيارة إنّها *** تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكا

فإني رأيت الغيث يسأم دائبا *** ويسأل بالأيدي إن هو أمسكا

وقال غيره:

أقلل زيارتك الحبيب تكن كالثوب استجدّه

و أملّ شيء لامرئ *** ألاّ يزال يراك عنده[40] .

بعد هذه الشواهد الشعرية، يعمد المصنف إلى ذكر بعض الشروح اللغوية للفظ (الغبّ) الوارد في هذا البيان النبوي فيقول: "والغبّ: أن تزور يوما وتدع الزيارة يوما، وقد أغبّ الزيارة، والغابّ من اللحم: ما قد بات ليلة، وغبّ الشيء ومغبّته: عاقبته، وغبّ المطر: أوّل أوقات انقطاعه"[41].

ح- "سواسية كأسنان الحمار..."[42]: أورد أبو هلال هذا المثل العربي الذي يحمل - كما هو ظاهر لفظه- مدلولا سلبيا إذ المراد به المستوون في الشر. أمّا المثل العام الذي يستعمل في الخير والشر وهو قولهم: "سواء كأسنان المشط"، فإن أول من تكلّم به هو الرسول ﷺ حين قال: "إنما الناس كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية". وبيّن العسكري بعد ذلك أنّ المراد بالعافية في الحديث هي الرحمة، ويستشهد على هذا المعنى بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه لأهل المقابر، ومما جاء فيه "... أسأل الله لنا ولكم العافية" يعني الرحمة[43] .

وفي السياق ذاته سياق التساوي بين الناس ومعايير المفاضلة بينهم يأتي أبو هلال بحديث نبوي آخر هو: "كلكم بنو آدم طفّ الصاع، ليس لأحدكم على أحد فضل إلا بالتقوى، والناس كإبل مائة ليس فيها راحلة".

ويعمد أبو هلال -هاهنا- إلى تأويل معنى المفاضلة الوارد في الحديث، فيذهب إلى أنّه لا فضل لأحد على أحد في أحكام الدين، أما في أمور الدنيا، فالتفاضل بين الناس واقع لا يمكن إنكاره. وإنما لجأ أبو هلال إلى هذا التوضيح خشية أن يفهم الحديث السابق على ظاهره فيلتبس الأمر على بعض الناس لاسيما مع وجود أحاديث أخرى تقرّ هذا التفاضل الذي لا يمكن إنكاره. يقول العسكري في هذا السياق: "ولو حمل الحديث على ظاهره بطل أن يكون لأحد على أحد فضل في أمور الدنيا، فلا يكون فيها شريف ولا مشروف، ولا سيد ولا مسود، فيبطل معنى قوله ﷺ: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" وقوله ﷺ لقيس بن عاصم: "هذا سيد أهل الوبر" وقوله: "الحسب المال، والكرم التقوى" إلى غير ذلك مما يجري مجراه"[44].

ط- "الغمرات ثم ينجلين": "الغمرات: الشدائد، يقول: اصبر في الشدائد فإنّها ستنجلي وتذهب، ويبقى حسن أثرك في الصبر عليها.

وهذا من قول رسول الله ﷺ: "اشتدي أزمة تنفرجي". والأزمة: الضيق والشدة. وأصله من العض؛ سنة أزوم، أي عضوض"[45]. وفي هذا المثل اكتفى أبو هلال بإثبات البيان النبوي الذي يطابق المثل المعروض في معناه إلى جانب شرح لغوي لإحدى مفردات الحديث.

ي- **"لاينتطح فيها عنزان"**: يضرب هذا المثل للأمر يبطل ويذهب فلا يكون له طالب. ويؤكّد أبو هلال أنّ أول من قاله هو الرسول ﷺ معتمدا على الرواية التي أوردها بسنده[46].

تلك - إذن- عشرة كاملة تعرفنا من خلالها على أبرز الطرق التي اعتمدها أبو هلال العسكري في تناوله للبيان النبوي الحاضر في منظومة الأمثال العربية، وذلك في كتابه المعروف: "جمهرة الأمثال".

والحق أنّ ما وقفنا عنده -هاهنا- من شواهد، بل إنّ ما أورده العسكري في هذا الكتاب من نماذج للبيان النبوي يعدّ غيضا من فيض؛ ذلك أنّ الشواهد في هذا الباب كثيرة جدا، وقد صنّفت بشأنها كتب خاصة[47].

وحسبنا -هاهنا- أن نذكر بعض الأمثال التي لم نتناولها فيما سلف: الحرب خدعة، ليس الخبر كالمعاينة، الخير عادة والشر لجاجة، المستشار مؤتمن، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، الخير كثير وقليل فاعله، أعقلها وتوكل، المرء كثير بـأخيه، المنتعل راكب، البلاء موكّل بالمنطق ...إلخ.

خاتمة:

في ختام هذا المقال، يمكننا أن نجمل أهم النتائج التي توصلنا إليها فيما يأتي:

- للبيان النبوي منزلة متميزة تعلو فوق كل بلاغة بشرية. وقد أكّد هذه الحقيقة العديد من العلماء والأدباء والنقاد من القدماء والمحدثين.
- تعدّ سمة "جوامع الكلم" من أبرز خصائص البيان النبوي، وهي تعني استيعاب المعاني الكثيرة في مباني قصيرة على درجة عالية من الفصاحة والبلاغة.
- يمكن اعتبار صفة الإيجاز التي تعدّ من أبرز خصائص "جوامع الكلم" من أهمّ أوجه الشبه بين البيان النبوي والمثل العربي.
- اعتمد أبو هلال العسكري في كتابه "جمهرة الأمثال" على ثقافته الواسعة في الأدب والنقد واللغة والبلاغة في معالجة البيان النبوي بطرق متعددة ومتنوعة من أهمّها إثبات المصدر النبوي للمثل مع إيراد سند الرواية كاملا، وفي بعض المواضع يقدّم شرحا لغويّا لبعض ألفاظ الحديث أو عباراته، وفي مواضع أخرى يبدي بعض الآراء النقدية أو الرؤى البلاغية، وفي بعض المواطن يتطرق إلى تفسير بعض المعاني الواردة في البيان النبوي وتأويلها على ضوء نصوص أخرى من الحديث الشريف، وفي كثير من المواضع يبيّن تأثير البيان النبوي في الشعر العربي من خلال إيراد شواهد شعرية متنوعة.
- ما جاء في كتاب "جمهرة الأمثال" من نصوص البيان النبوي يعدّ قليلا جدا بالقياس إلى الكم الهائل من تلك النصوص التي ألّفت بشأنها كتب خاصة.

الهوامش:

[1]- ينظر، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعدّه للطبع: د/ عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1992، ص230.

[2]- ينظر، ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، ج1، تح د/ أحمد الحوفي، د/ بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دت، ص37.

[3]- ينظر، أبو الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، تح، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، دت، ص254.

[4]- ينظر، عبد الرحمان بودرع، الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، ط1، 2009، ص25.

[5]- ينظر، مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج2، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2007، ص240.

[6]- ينظر، المرجع نفسه، ص245.

[7]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، تح. عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط4، ص16.

[8]- مقدمة كتابه (الفائق) نقلا عن عبد المجيد قطامش، "الأمثال العربية - دراسة تاريخية تحليلية -"، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1988، ص159.

[9]- تاريخ آداب العرب، ج2، ص250.

[10]- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، ج6، تح. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط3، 1987، ص 2654.

[11]- ينظر، عبد الرحمان بودرع، الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي، ص32، 33.

[12]- ينظر، المرجع نفسه، ص33.

[13]- ينظر، تاريخ آداب العرب، ج2، ص242 (في الهامش).

[14]- من هؤلاء -على سبيل المثال لا الحصر- الجاحظ والرافعي، وقد اقتبسنا آنفا من كلامهما ما يتضمن هذا المعنى.

[15]- ينظر، الإيجاز وبلاغة الإشارة...، ص33.

[16]- الإيجاز وبلاغة الإشارة...، ص38.

[17]- ينظر، تاريخ آداب العرب، ج2، ص283.

[18]- عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، مكتبة رحاب، الجزائر، ط3، دت، ص117.

[19]- ينظر، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج5، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجبلين، بيروت، دط، دت، ص296.

[20]- أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، مجمع الأمثال، ج1، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، 1374/ 1955، ص05.

[21]- أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، القاهرة، دط، دت، ص61.

[22]- أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج1، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ط2، دت، ص4-5.

[23]- هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ولد بعسكر مكرم من بلاد فارس، وبها نشأ، وإليها ينسب، عمل بالتجارة وتنقل إلى بلاد متعددة فأخذ عن فضلائها العلم والأدب، وله فيهما تصانيف في غاية الجودة من أشهرها "كتاب الصناعتين"، و"كتاب جمهرة الأمثال"، و"الفروق في اللغة"، وديوان شعره... توفي بعد سنة 400ه (ينظر تصدير كتاب جمهرة الأمثال).

[24]- ينظر عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية...، ص111.

[25]- ينظر جمهرة الأمثال، ج1، ص13، 14.

[26]- المصدر نفسه، ص14.

[27]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[28]- ينظر جمهرة الأمثال، ج1، ص15.

[29]- ينظر المصدر نفسه، ص15.

[30]- جمهرة الأمثال، ج1، ص16.
[31]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[32]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[33]- المصدر نفسه، ص182، 183.
[34]- جمهرة الأمثال، ج1، ص183.
[35]- المصدر نفسه، ص308.
[36]- المصدر نفسه، ص311.
[37]- المصدر نفسه، ص269.
[38]- جمهرة الأمثال، ج1، ص453.
[39]- المصدر نفسه، ص505.
[40]- جمهرة الأمثال، ص505.
[41]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[42]- المصدر نفسه، ص522.
[43]- نفسه، ص523.
[44]- جمهرة الأمثال، ج1، ص523، 524.
[45]- المصدر نفسه، ج2، ص80، 81.
[46]- المصدر نفسه، ج2، ص403، 404.
[47]- منها -على سبيل المثال لا الحصر- "كتاب الأمثال في الحديث النبوي" في جزئين لأبي الشيخ الأصبهاني، تح: د/ عبد العلي عبد المجيد، الدار السلفية، بومباي، الهند، ط1، 1982.